الشعب المقلم

للاستاذ أحمد قاسم أحمد

لا أعتقد أن هناك شعباً وهب الحيوية الدافقة ، والاستعداد الشره للتطور والرقي ، والعقلية الساعية للتجديد والابتكار ، ومسايرة ركب الحضارة والتمدن ، مثل ما وهب ذلك الشعب المكروب ... شعب مصر ... !

ولا أعتقد أن هناك ظلماً وقع على هذه القوى الحية الخلاقة عند أي شعب من شعوب الأرض ، مثل الظلم الذي وقع عليها عند هذا الشعب المنكوب .. شعب مصر ... !

ذهب قصار النظر في ميادين الاجتماع ، ودراسة نفسيات الشعوب ، إلى اتهامه بما يشين ولا يشرف . قالوا إنه شعب ألف الخنوع والذلة ، واستنام إلى الضعة والمهانة ، وآثر حلاوة اللقمة مع لذعات السوط ، على مرارة الكفاح مع عقبى الحرية ... وهذه هي الفرية التي ظلها الاستعمار حقيقة ، فراح يستهين به أي استهانة ، ويلهو بأفراده أي لهو .

فهم القطيع العامل إن احتاج إلى العاملين ...

وهم الطعام السائغ لرصاص أعدائه إن اشتدت به الكربة في الميادين ، وهم الملهاة السائغة إن رغب في التفريج عن جنوده المكدودين . ومن هنا قال قائلهم : إن ثورة المصريين جذوة تطفئها بصقة ... ! ولكن الحقيقة الهائلة كانت تكمن وراء ذلك . كانت تستقر في أعماق كل فرد من أبناء هذا الشعب ... كان الشعور بالحرية والسيادة ليس عنصراً دخيلا على نفسه ، بل كان تراثاً معجوناً فيما ورثه عن آبائه وأسلافه ، وعن طريقه نهض يدفع ويدافع ، ويبذل ويضحي في كل ثورة ثارها ، حمل لواءها وأوقد نارها ، واستدارت عينا الدخيل دهشة وعجبا ، وتراءت له الحقيقة ساخرة ، تصرخ في وجهه في قوة وجبروت ، أو تهزأ من ظنه في سخرية واحتقار ... وبانت له الهوة العميقة التي عاش في قرارها ردحا من الزمن ، يألف أن يحس الحداد ، ولا بغى أن يشتعل الرماد ، ولكن لا يسمح لفطنه وخياله أن يسبغا على الخلان الوديعة يوما صفة الثورة للكرامة ، والعزعة للسيادة .

وذهب يتحسس طريقه بعيون عاشية ، وأبصار غائمة ، ونفوس هامدة ، فأقبل بالحيلة والمكر ، يقدم الاستقلال في طبق المعاهدة ، فيحيله من غذاء نافع إلى سم ناقع ، ومن حقيقة زاهية إلى أكذوبة واهية ، ينخدع لها السذج الأغرار ... وجازت الحيلة على الزعماء فأقبلوا على الوجبة المسمومة بشهية مفتوحة ... ! وطفق الإنجليز يستعدون لملاقاة الشعب من جديد .

أشرفوا على الجيش فنكبوه وأماتوه ... وساعدهم المتزعمون بالرضا والتشجيع ، فتركوا قوانينهم الزرق توثق الشعب باليمين والشمال : فالإعفاء من الجندية للدافع والحافظ ...

وحمل السلاح محظور ... والاجتماعات لها عندهم نصوص وعقوبات ... ! وهكذا التفت الشعب فوجد أن ما بذل من دم وعرق ، عاد عليه قيدا يغل ، وسيفا يرهب ، وتشريعا يجور ... !

وهكذا نشأ الجيل الحاضر : جيلا لا يعرف كيف يمسك سكينا ، ولا يصوب بندقية ، ولا يرمي قنبلة ...

نشأ جيلا له الأصابع وليست له الأظافر ، له الفم وليس له الناب ، له القوة ولكن لها ما يحطمها ، لها الحشيش والأفيون والكوكايين والهيروين . تخدر الأعصاب فلا تحس برواعد النذر تدوي كل يوم حول آذان لا تسمع ، وتبرق كل آن أمام نواظر لا ترى ... ورضي — هذا الجيل — لنفسه أن تسمح لغيرها — في الحرب الثانية — بالدفاع عن أرضه ... ناسيا أنها سبة لا تغسلها إلا هبة ، وعار لا تمحوه إلا نار ... !

واستنام الإنجليز للمرة الثانية ؛ فقد استطاعوا أن يمدوا أيديهم إلى مواطن القوة في الشعب فخدروها ، وإلى الشدة التي تنزو بالعزة والإباء في النفوس فجففوها ... وباتوا وأصبحوا ... فاذا قطيع يضرب ولا تفاء ، ويحلب ولا استعصاء ، ويستحث ولا إبطاء ... ورقصت الفرحة في عيونهم رقصة النصر ... !

ولكن الجفاف الذي أصاب الشدة كان طارئا فزال ، ومؤقتا فانقشع ، وعادت تنزو من جديد ... ! وعربدت في الصدور نوازع الشمم ، عنيفة كأقسى ما يكون العنف ، قوية كأعنف ما تكون القوة ، وآثر — القطيع — هذه المرة أن يكون حذرا